الحذاء

مجموعة قصصية

أنطون تشيكوف

ترجمة
مصطفى مرسي

دار المحرر الأدبي

obeikandl.com

أنطون تشيخوف

(١٨٦٠ـ١٩٠٤م)

كاتب مسرحية وقصة قصيرة روسي. تعكس أعماله الأحوال الراكدة والميئوس منها للمجتمع الروسي، وبخاصة الطبقات الوسطى في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. ومعظم شخصياته أناس وقورون وحساسون، يحلمون بأن يحسِّنوا حياتهم، ولكن معظمهم يفشل في ذلك، وهم ضحايا لشعورهم الشخصي بالعجز وعدم الأهمية. ويرى بعض الدارسين أنه ربما كان تشيخوف ينتقد التخلف الذي لمسه في الحياة الاجتماعية والسياسية في روسيا تحت حكم القياصرة. إلا أن تشيخوف لم يصرِّح أبداً بهذا الاتجاه.

ربما كانت أشهر أعمال تشيخوف أربع مسرحيات كتبها في أواخر أيامه: طائر النورس (١٨٩٦م)؛ الخال فانيا (١٨٩٩م)؛ الأخوات الثلاث (١٩٠١م)؛ بستان الكرز (١٩٠٤م). وقد وصف هذه المسرحيات بأنها كئيبة ومتشائمة. ولكنها في الواقع مزيج من الجو الشعري والمعالجة المتعاطفة للأشخاص الذين وقعوا أسرى عدم تحقيق ذواتهم، ولا يستطيعون مساعدة أنفسهم.

وُلد أنطون بافلوفيتش تشيخوف في تاجا نروج في جنوبي روسيا. وفي عام ١٨٧٩م رحل إلى موسكو، حيث درس الطب. وخلال تلك الفترة، كتب تشيخوف قصصًا قصيرة مرحة ومقالات لصحف شعبية، وصفحات هزلية لكي يسُدَّ رمق أسرته المحتاجة. تخرَّج تشيخوف في كلية الطب وأصبح طبيبًا، إلا أنه

لم يمارس الطب إلا قليلاً، مكرسًا نفسه بدلاً من ذلك لمستقبله ككاتب. زار تشيخوف جزيرة سخالين في المحيط الهادئ للاطلاع على أحوال السجون هناك. ويصف كتابه جزيرة سخالين (١٨٩٣ـ ١٨٩٤م)، الأحوال المرعبة التي كان يعيشها المساجين هناك. في عام ١٩٠١م تزوج تشيخوف أولجا كنيبر، وهي ممثلة أدَّت أدواراً رئيسية في مسرحياته التي عرضت على مسرح الفن الشهير بموسكو.

ابتهاج

ما كادت الساعة تشرف على الثانية عشر مساء، حتى دلف ميتيا كلدروف إلى داره، أشعث الشعر، منفعل الوجه، مضطرب النفس. فهرع إليه والداه وكانا على وشك النوم، وكذلك شقيقته وكانت قد أتت على الصفحة الأخيرة من إحدى القصص. أما اخوته التلاميذ فأغرقوا في النوم.

وصاح والداه في دهش:

ـ من أين أقبلت! ماذا دهاك؟!

ـ لا تسألاني... لم أكن أتوقعها... أنها المستحيل بغير شك...!

وعجزت ساقاه عن حمله ـ لما غمره من السعادة ـ فتهالك على أحد المقاعد ضاحكاً مردداً:

ـ أنهـا المسـتحيل! . . . انظـروا، فـأنتم لا تتصورون مبلغ ذلك! فخفت إليه أختـه ـ وقـد أحاطت نفسها بدثار ـ واستيقظ الأطفـال علـى صدى هذه الضجة.

ـ مـا الـذي حـدث؟ إنـك تبـدو في غـير طبيعتك!

ـ ذلـك لأنـي لا أكـاد أتمالـك نفسـي مـن الابتهاج، ألا تعلمين أن روسيا بأجمعها تعرفني الآن؟ تعـرف ذلـك الكاتـب المسـجل دمـتري كلدروف؟

وعاد ميتيا يهرول في غرف المنزل من جديد، ثم لم يلبث أن أدركـه الكلـل والعنـاء فتهالـك علـى المقعـد ثانيـة، وشـك الجميـع في أنـه قـد أصيب بلوثة في عقله، فصاح ميتيا في سخرية:

ـ أنتم تعيشون هنا كالوحوش، لا تـدركون ما يدور حولكم لأنكم لا تعـيرون اهتمامـاً مـا

ينشر في الصحف من الأخبار الهامة، إن الصحف تذيع ما يطرأ من الحوادث الخطيرة، فلا تبقى خافية على الناس. . . يا إلهي، كم أنا سعيد. . . ألا تدرون؟ لقد نشرت الصحف أسمي كما تنشر أسماء العظماء المشهورين!

فهرع الأخوة نحو أخيهم وقال الوالد وقد علا وجهه شئ من الشحوب:

ـ ماذا تعني؟ أين ذلك؟

ـ ماذا أعني لقد نُشر أسمي في الصحف وعرفتني الآن روسيا بأجمعها. . . انظروا. .

وجذب ميتيا من جيبه نسخة من إحدى الصحف وناولها والده وأومأ إلى فقرة علامة زرقاء واضحة.

ـ هلا قرتها؟

فثبت الأب نظارته أمام عينيه، أما الأم ففغرت فمها وقد ارتسم عليه شيء من البله، وراحت تتمتم في صوت خفيض، وارتفع بعد هنيهة صوت الوالد وهو يتلو الفقرة:

(في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٩ ديسمبر، بينما كان كاتب مسجل يدعى ديمتري كلدروف. . .)

فقاطع ميتيا والده قائلاً:

ـ أسمعتم؟ استمر

(. . بينما كان كاتب مسجل يدعى ديمتري كلدروف يغادر إحدى حانات الخمر في حي (كوزهين) بمقاطعة (بورونيا) وهو في حالة سكر).

ـ أنه أنا يا والدي، وكان معي سيمون بتروفلش، أنهم يصفون الحادث أروع وصف. . . أنصتوا. . . استمر

(في حالة سكر، تعثر وهوى تحت حصان عربة للثلج، يقودها رجل ريفي يدعى (إيفان دروتوف) من قرية (دريكينو) بإقليم (يونفسكي) فهاج الحصان ووطئ كلدروف، ومرت العربة فوقه وانقلبت بالقرب من تاجر موسكو يعرف (بستيبان لكوف)، فتحطم ما كان بها من الثلج على قارعة الطريق، واستطاع نفر من الناس أن يقبضوا على زمام الحصان الجامح، وحمل كلدروف في غيبوبته إلى مركز الشرطة حيث فحصه الطبيب وكانت الإصابة التي أصابته في مؤخرة رأسه. . .)

وعاد ميتيا يقاطع والده:

ـ لقد كانت من نوتأ في العربة. . . أتم الباقي. . .

(. . . التي أصابته في مؤخرة رأسه لم تكن بالخطيرة، وقد كتب تقرير عن الحادث وأسعف الجريح بالمساعدة الطبية اللازمة)

وأخبروني إنه يجب موضع الإصابة بالماء البارد. . . أصدقتم الآن؟ إن روسيا جلها تعرفني أنا ديمتري كلدروف ناولنيها يا أبتاه!

والتقط ميتيا الصحيفة من والده وطواها، ودسها في جيبه، وراح يقول:

ـ سأنطلق الآن إلى أصحابي ومعارفي لأنبئهم بأن ديمتري كلدروف قد ذاع صيته في روسيا. . . نعم سأريهم الصحيفة. وداعاً

وارتدى ديمتري قبعته الحمراء. . . وهرول إلى الطريق وملء جوانحه الزهو والابتهاج. .

الخطيب...

. . . في صبيحة يوم مشرق كان (كيريل ايفانفتش بيلولوف) كاتب الجامعة على وشك أن يدفن، وهو رجل مات متأثراً بالآفتين الشائعتين في بلادنا: زوجة سيئة الخلف، وإدمان للخمر.

وبينما كان موكب الجنازة يجتاز الطريق إلى المقبرة قفز أحد رفقاء المرحوم ويدعى (بيلافسكي) إلى عربة، وراح يركض بها منقبا عن (جرجوري بتروفتش زبوكين)، وهو رجل ـ مع حداثته ـ يتمتع بهيبة ومحبة من معارفه، ويحيط بقسط وافر من العلم ـ كمعظم قرائي ـ وقد خلع الله عليه موهبة نادرة في ارتجال الأحاديث التي ينطلق لسانه بها في الأعراس والأعياد والجنازات، وفي قدرته أن يتحدث

كيفما وحيثما يشاء . . . في نومه، في خواء معدته، عندما ينتشي لكثرة ما نهل من الخمر، عندما تعتريه الحمى فتسيل الألفاظ من فمه في سلاسة ولطف كما تنساب المياه في الجداول، ويعج قاموسه الخطابي بكلمات لا تدانيها (صراصير) المطاعم في الغزارة والوفرة. أما أسلوبه ففصيح بليغ يفيض بالإطناب والإسهاب، ولذا يلجأ القوم ـ في بعض أعراس التجار ـ إلى الاستعانة بالشرطة لإيقاف ذلك السيل المتدفق . . .

وابتدره بيلافسكي حينما عثر عليه في داره قائلا: (لقد أتيت في طلبك ـ أيها العجوز – هيا ارتد قبعتك وسترتك على عجل واصحبني . . . فقد مات أحد رفقائنا ونحن على وشك أن نشيعه إلى الآخرة، ولذا وجب عليك أن تودعه بكلمة من كلماتك الرائعة

فأنت أملنا الوحيد، ولولا أن ذلك الفقيد له مقام في المجتمع ويستحق ما يقال في تأبينه لما أتعبناك وأزعجناك، ولكنك تعلم إنه كاتب الجامعة وناموسها والدعامة الراسخة التي كانت تعتمد عليها الإدارة، فينبغي أن نشيعه ولو بحديث لائق. . .) فقال زبوكين بغير اكتراث: (هه. . . كاتب الجامعة! أتعني ذلك الرجل السكير؟!)

ـ (نعم. سيكون ثمة فطائر وغذاء. وستنال أجرة العربة. . . هيا، عجل يا عزيزي، يكفيك أن تلقى ببعض الألفاظ الحزينة عند القبر كما كان يفعل سيكرو العظيم. . . آه كم ستحوز من الشكر والثناء!)

فوافق (زبوكين على الفور وراح يعبث بغدائر شعره وجعل على سحنته مسحة كآبة وحزن، وانطلق في الطريق بصحبة

(بيلافسكي)، وقال وهو يهم بركوب العربة: (إني أعلم من هو كاتبكم هذا. . . رجل شرير خبيث، وحش لم أصادف نظيره في حياتي. . . فليكن الله في عونه).

ـ (آه. . . (جريشيا) هيا معنا فليس من العدل أن نسيء إلى رجل ودع الحياة).

ـ (لا مجال للشك في ذلك: (فما يذكر للميت سوى حسناته) ولو كان شريراً. .).

وأدرك الرفاق الثلاثة موكب الجنازة، وراحوا يسيرون معه. أما النعش فكان يتقدم وئيداً وعلى مهل حتى أنهم استطاعوا ـ قبل وصولهم إلى المقبرة ـ أن ينسلوا ثلاث مرات إلى حانة خمر وينهلوا بعض الأقداح (نخب) حياة الراحل (الكريم).

وفي المقبرة راح الجميع يصلون إلى جانب اللحد. . . أما حماته وزوجته وأختها فأخذن

يـذرفن الـدمع ـ مراعـاة للتقاليـد والعـادات ـ وعنـدما واروا الـنعش في الـتراب صـرحت الزوجة في لوعة وأسى (دعـوني أرحـل معـه) ولكنهـا لم تصـحب زوجهـا إلى القـبر فقـد تذكرت ما ستنال من معاش الفقيد . . .

ولبث (زيوكين) حتى خـيم الصـمت علـى الجميـع . . . فخطـأ إلى الأمـام . . . وراح يقلب طرفه في الحاضرين . . وبدأ يقول :

(أأصـدق مـا تـراه مقلتـاي ، ومـا تسـمعه أذنـاي؟ . . لا . إن هـذا إلا أضـغاث حلـم مزعج . . . هذا القبر ، هذا الدمع الذي يتـألق علـى الوجنـات . . . هـذه الإنـاث وهـذه الزفرات . . . أهذا كله وهم؟ لا وا أسـفاه مـا هـذا بحلـم . . . إنمـا هـي الحقيقـة وأعيننـا لا تخدعنا . . . لقد قضى نحبه من كان بيننـا منـذ لحظـات ، مـن كـان أمـام أعيننـا كالنحلـة

الدؤوب . . . لا يقر قرارها حتى تخرج العسل شهياً لصالح الخلية الاجتماعية . . . لقد ارتد الآن إلى التراب . . . إلى التراب الخداع ، لقد اختطفته يد المنون القاسية الجبارة في لحظة كان يفيض فيها ـ مع تقدمه في العمر ـ بالحياة والقوة والطموح . إنها لعمري خسارة لا تعوض . . ترى من سيخلفه في منصبه ، لاشك أن في حوزتنا من هو كفء لها ، ولكن (بركوفي اسبتسن) معدوم النظير . . لقد كان منصرفاً إلى تأدية واجبه بما وسع مقدوره . . . لم يضن بقوته بل كان يجهد نفسه في العمل إلى لحظات متأخرة من الليل . . . كان مثلا عالياً للقلب والطيب والضمير المنزه عن الرشوة ، كم كان يحتقر أولئك الذين يأكلون مال الناس بالحق وبالباطل . . . لا يفتأون يحللون له الضلال ليحيدوا به عن السبيل السوي . . . نعم أمام

أبصارنا (بروكوفي اسبتسن) الذي يجود براتبه لإخوانه التعساء . . كم ستطرق آذاننا تلك الأنات التي تطلقها الأرامل واليتامى بعد أن قضى نحبه من كان يحسن إليهم، من كان منصرفا إلى أعمال البر وإلى تأدية واجبه . . من كان عزوفا عن ملذات الحياة وبهجتها . . من نبذ سعادة هذا المجتمع . . . بل نبذ الزواج وجانب النساء إلى آخر أيامه . من ذلك الذي في قدرته أن يخلفه كرفيق جبلنا على حبه . . . وكأني أنظر إلى وجهه الحليق تعلوه الرحمة يلتفت إلينا وعلى ثغره ابتسامة مشرقة . . . وكأني أنصت إلى صوته الحنون الشفيق . أسأل الله أن يشملك برحمته يا بروكوفي أسبتسن فقد كنت شريفا أمينا مع ما في ذلك من عناء . .) .

وواصل زبوكين حديثه . . . بينما شاع الهمس بين المنصتين، لقد أرضى حديثه

الجميع. بل وجعل بعض الدموع تنهمر من المآقي. . . ولكن بدت معظم الفقرات الخطابية غريبة؛ فأولا: لم يدركوا السبب الذي دعا الخطيب من أجله الفقيد باسم (بروكوفي اسبتسن) مع أن اسمه (كيريل ابفنفتسن).

ثانيا: أن الجميع يعلم ما كان ينشب بين الراحل وزوجته من الشجار. فمن المؤكد إذن إنه لم يكن أعزب كما نعته (الخطيب). ثالثا: كان ذا لحية كثة حمراء وهذا يتنافى مع قول الخطيب من إنه كان (حليق الوجه). ولهذا أعجز الجميع فهم معظم أقوال الخطيب. . . وعلا وجوههم الوجوم، وبهتوا وأخذ يتلفت بعضهم إلى البعض، بينما راح فريق منهم يهز أكتافه في ملل وضجر.

واستمر الخطيب في خطبته ـ وقد اتخذ في رفقته هيئة الحزين. فقال: (بروكوفي اسبتسن. لقد كان وجهك وضاحا مع إنه قبيح. . . كنت عبوسا مقطب الجبين، ولكن كلنا يدرك أن تحت هذا المظهر الخارجي قلبا يغلب عليه الشرف والشفقة والحنان. . .). وفجأة لحظ المستمعون أن الخطيب نفسه بدأ يعتريه شيء من الاستغراب كان يتفرس في جهة معينة من الجمع الغفير. ولم يلبث أن كف عن الحديث وفغر فاه في دهشة. . . ثم مال على صديقه بيلافسكي وقال وهو يحملق في فزع (هه. لقد رأيته. . . إنه ما زال على قيد الحياة؟!).

ـ (من هو الذي لا زال على قيد الحياة؟!).

ـ (بروكوفي اسبتسن!! ها هو قائم عند حجارة القبر!!)

ـ (إنه لا زال على قيد الحياة . . . إنما الذي مات كيريل ايفانفتسن أما بروكوفي اسبتسن فقد كان كاتب الجامعة منذ حين وقد نقل إلى المنطقة الثانية رئيسا للمكتبة . . .) .

ـ (يا للشيطان الذي أوحى ألي بذلك !) .

ـ (لِمَ وقفت عن الحديث . . . انطلق عجبا ! ! إنك مضطرب) . والتفت زبوكين إلى القبر ، وفي فصاحته المعهودة تابع حديثه . أما بروكوفي اسبتسن كبير الكتبة الكهل ذو الوجه الحليق فقد كان قائما حقا قرب حجارة القبر . . . كان ينظر إلى الخطيب شزراً . . . وقد انتابته موجة من الغضب .

أخذ رفقاء زبوكين يتغامزون عليه في عودتهم (هه . . . هه . . . يا لك من غر ! عجبا ! أتود أن تدفن رجلا وهو يفيض بالحياة ؟) ودنا منه بروكوفي اسبتسن وراح يقول

في تذمر: هذا لا يليق أيها الشاب، إن حديثك هذا له قيمته إن كان في رجل قد ودع الحياة، أما إذا كان يمت إلى رجل حي فهو كلام فارغ وتهكم واستهزاء. . . كم تحدثت طويلا عن روحي وعن نفسي! أيها الأبله! ماذا كنت تقول؟! مثلا عالياً للقلب الطيب والضمير المنزه عن الرشوة. . إنها كلمات تقال للأحياء على سبيل التهكم، ومع ذلك من الذي دعاك إلى التحدث بإطناب عن وجهي؟! قبيح عبوس، ولنفرض إنه كذلك، ما الذي عاد عليك أيها الأبله من وصف محياي على ذلك الملأ. . . إنها والله إهانة لن أغفرها لك

الحذاء

قال (مركين) ـ ضابط البيان ـ وهو رجل ذو وجه حليق شاهب ساهم، وأنف ملوث بالسعوط، وأذنين محشوتين بالقطن. . . صاح في صوت أصحل وهو يغادر غرفته بالخان، ويطأ أرض البهو:

ـ (سميون. . . أيها الساقي). ولو أن إنساناً لمح وجهه الممتقع في تلك اللحظة لظن أن نظره وقع على شبح يتراقص في غرفته. وما كاد يبصر الخادم يخف مقبلا عليه حتى قال في هيعة وفزع:

ـ (سميون. . . بالله ماذا تعني بذلك؟ إني رجل منهوك، مصاب بالنقرس المزمن، وقد جعلتني أسير حافي القدمين. . . أين حذائي؟ ولم لم تأت به؟!)

فولج سميون غرفة مركين، وراح يحملق في المكان الذي اعتاد أن يترك فيه الحذاء بعد تنظيفه. . . ثم جعل أناملـه تعبث بشعر رأسه: فقد اختفى الحذاء! وأخذ يردد في صوت خافت:

ـ (كيف تأتي لتلك الأشياء اللعينة أن تختفي؟! يخيل إلي أني نظفتها في المساء، ووضعتها هنا. . . هه! إني لأصرح أني نهلت بعض الخمر البارحة، فلعلني تركت الحذاء في غرفة أخرى، وربما كان في غرفة (أفاناسي بجورتش). لقد كان أمامي كومة من الأحذية. تباً للشيطان الذي يزين للإنسان الشرب، ثم يجعله بعد ذلك يفعل ما ليس يدري. . . سيدي، لابد أن حذاءك في غرفة السيدة التي تليك. . . الممثلة)

(والآن تدفعني (سيادتك) إلى إقلاق سيده من أجلك. . . أأوقظ سيدة فاضلة لغباوتك وحماقتك؟). ودنى مركين من باب الغرفة التالية وهو يتنهد ويسعل. . . ثم طرق الباب في حذر. . . وبعد هنيهة سمع صوت امرأة تقول (من. . . هناك؟) فراح مركين يقول في توسل، وقد اتخذ في وقفته هيئة الفارس الذي يخاطب سيده أرقى منه طبقة (معذرة لإقلاقك يا سيدتي. . . ولكني رجل منهوك، مصاب بالنقرس المزمن، وقد أشار علي الطبيب بتدفئة قدمي. . . هذا إلا أنه علي أن أذهب في الحال لضبط بيان قرينة الجنرال (شفليتسين) ولا يمكنني الذهاب حافي القدمين).

ـ (ولكن ماذا تبغي؟ أي بيان؟!).

ـ (ليس بيان يا سيدتي. . . إنما أشير إلى حذائي. فإن سميون ـ ذلك الخادم الغبي ـ نظفه

وتركه خطأ في غرفتك. فأشفقي على ضعفي وناوليني حذائي) ثم تلا ذلك صوت خفيف، ثم نهوض من الفراش ووطئ نعال، وبعد ذلك انفرج الباب قليلا، وألقت يد نسائية مكتظة زوجاً من الأحذية إلى مركين. فشكرها (ضابط البيان) وانطلق إلى غرفته. ولكنه ما لبث أن دمدم وهو يدخل قدميه في الحذاء: (عجباً. . يخيل إلي أن هذا ليس بحذائي. . . ومع ذلك فكلا الحذاءين لا يصلح إلا للقدم الشمال. . سميون ما هذا بحذائي. . . فحذائي ذو لسان أحمر. . . وليس به ثقوب. . . أما هذا فخال من الألسنة الحمراء كما أنه ملآن بالثقوب!) فالتقط سميون الحذاء، وأخذ يقلبه في كفيه أمام عينيه. . . ثم لم يلبث أن قطب ما بين حاجبيه وقال في تذمر هذا حذاء (بافل ألكسندرتش) ـ (أي بافل الكسندريسن؟!).

ـ (الممثل . . . إنه يحضر هنا كل ثلاثاء . . لابد أنه تحذى حذاءك بدلا من حذائه . . . وأحسب أني وضعت حذاء كل منكما في غرفة الآخر) .

ـ (وعلي بعد ذلك أن أغيره! . أليس هذا ما ترمي إليه . . . أيها الأبله؟) . فقال سميون في سخط (أصبت . . . أمضي واسترد حذاءك إذاً . . . ترى أين يكون الآن؟ لقد خرج منذ حوالي ساعة . . ومن العبث أن نبحث عن) . فقال مركين (ألا تدري أين يسكن؟!) .

ـ (ومن الذي يمكنه أن يدلك على ذلك؟ أنه يأتي إلى هنا كل ثلاثاء . ولست أدري أين يقطن . . . أنه يمكث هنا ليلة واحدة . . . فما من مندوحة سوى أن تنتظر حتى الثلاثاء القادم) . فتحوب مركين قائلا (هنا أتقول هذا أيها الوحش؟!! . ما عساي أصنع الآن وقد

أزف الموعد الذي يجب أن أكون فيه بحضرة قرينة الجنرال (شفليتسين)؟ . أفقهت أيها الحقير؟ . آه تكاد قدماي أن تتجمدا . . .) .

ـ (يمكنك أن تستعيد حذاءك قبل ذلك . . احتذي هذا الزوج . وامض به حتى المساء ، ثم اذهب إلى المسرح . . . وأسأل عن الممثل (بليستوف) وإذا لم تسارع بالمضي إلى المسرح فعليك باللبث حتى الثلاثاء القادم أنه لا يحضر إلا كل ثلاثاء . . .) فالتقط مركين الحذاء وأخذ يتساءل وهو ينظر إليه باشمئزاز ونفور (ولكن كيف تعلل أن كلا الحذاءين لا يصلح إلا للقدم الشمال) . فقال سميون وقد نفذ صبره :

(أي قدر قذف بذلك الممثل؟ أنه لأفقر خلق الله قاطبة . . . وقد قال لي (أين الممثل الذي يمكنه أن يبتاع حذاء) فقلت له (ولكن من العار

يا بافل الكسندرتش أن تحتذي ما لغيرك) فـراح يصيح (أمسك لسانك ولا تجعلن أبطش بـك. ألا تدري أني أقوم بتمثيل الأمراء والعظمـاء). ثـم انصـرف في حـذائك. . . إنهـا لعمـري شرذمة من الطغام. . . أولئك الممـثلين. . . آه لو أني الحاكم بأمره أو أي شخص ذو سـلطة (لجمعت هؤلاء الممثلين. . . وزججـت بهـم في أعماق السجون. . .).

وبـين الـزفير والأنـين. . . الـتقط مـركين الحـذاءين الشـماليين ولبسـهما. . . ونهـض وهو مقطـب الجـبين، كاسـف البـال يعـرج في خطوتـه إلى دار الجنـرال (شفليتسـين). . . وأمضى يومـه جلـه في المدينـة ينتقـل في أنحائهـا لضـبط بيـان كـل مـن يـود. وكـان يتـوهم أن الجميـع يتطلعـون إلى حذائـه الـذي عفـا عليـه الزمان. بلى كعبـه، وذهـب لونـه. . . وقـد

أصيبت قدماه بالورم من جراء ما كان يعانيه من آلام شتى قاسية. . .

وما كاد المساء يشعل الكون، حتى أسرع مركين إلى المسرح حيث كانت تمثل رواية (الطائر الأزرق). وكان التمثيل يشرف على النهاية. . . فاتصل مركين بعازف الناي في الجوقة الموسيقية ـ وكانت بينهما صداقة ـ ليعينه على التسلل إلى ما خلف المناظر المسرحية. ثم لم يلبث أن دلف إلى (غرفة ثياب الممثلين) حيث وجد بعضهم بغير أرديته، والبعض يدهن وجهه، والباقي ينفث دخان لفائفه. . .

ووقف الطائر (الأزرق) يعرض على (الملك بوبش) غدارة في يده ويقول:

ـ (يجمل بك أن تشتريها، فقد ابتعتها من (كيرسك) كرهينة بثمانية (روبلات)، ولكني

سوف أدعها لك نظير ست فقط . . . إنها رائعة بلا شك) .

ـ (حذار . . . فهي محشوة بالبارود كما تعلم) اقترب مركين في تؤدة وقال :

ـ (هل لي أن أتشرف بمحادثة السيد بليستنوف؟!) فالتفت إليه (الطائر الأزرق) وقال :

ـ (أنا ذا! ماذا تبغي؟!)

فأخذ ضابط البيان يقول في صوت شاع فيه التوسل :

ـ (معذرة لإزعاجك يا سيدي، ولكن صدقني، فأنا رجل منهوك مصاب بالنقرس المزمن، وقد أشار علي الطبيب بتدفئة قدمي)

ـ (ولكن أين ما تريد!) .

فقال مركين يخاطب (الطائر الأزرق) :

obeikandl.com

ـ (ألست تذكر! . . . أنك أمضيت الليلة البارحة في خان (بهتياف) في الغرفة رقم ٦٤). فانفجر (الملك بويش) صائحاً في غضب كالح: (هه! ماذا تقول؟) إن زوجتي في الغرفة ٦٤ فابتسم مركين: (زوجتك يا سيدي، هذا يسرني، إن زوجتك طيبة قد أشفقت على ضعفي، وناولتني حذاء ذلك الرجل الدمث، وبعد أن مضي ذلك الرجل). وأشار مركين إلى بليتنوف: (تفقدت حذائي، ولم أعثر عليه، فاستدعيت الساقي وسألته عن الحذاء، فأجابني أنه تركه في الغرفة المجاورة خطا على أثر ما جرعه من الخمر. تركه في غرفتك ٦٤ يا سيدي). ثم التفت مركين موجهاً حديثه إلى بليستنوف: (وعندما خلفت زوجة هذا ذلك الرجل الطيب لبست حذائي). فصاح بليستنوف وقد اجتاحه الغضب: (عم

تتحدث؟ أأتيت هنا لكي تخيل علي وتتهمني بافتراء باطل لا ظل عليه من الحقيقة؟)

ـ (لا . . . لا . . . يا سيدي! حاش الله، لقد أسأت فهمي، لست أتحدث عن شيء سوى الأحذية . . . ألم تمض ليلتك في الغرفة ٦٤؟ خبرني ألم تفعل ذلك؟)

ـ (متى؟). فقال مركين: (ليلة أمس)

ـ (ما الذي جعل ذلك يدور بخلدك؟ أأبصرتني هناك؟) فجلس مركين وأخذ ينزع الحذاء من قدمه، ثم قال في اضطراب وتعلثم:

ـ (لا يا سيدي . . . لم أرك هناك، ولكن زوجة هذا السيد الفاضل ألقت إلي بحذائك بدلا من حذائي).

ـ (ما الذي يثبت زعمك هذا وافتراءك؟ لن أقول شيئاً عن نفسي، ولكنك تمس عفاف

سيدة شريفة بالقذف والتجريح وفي حضرة زوجها أيضاً).

وارتفع من خلف المناظر المسرحية عجيج وضجيج. . . لقد أهوى (الملك بويش) الزوج الجريح في شرفه، وقد علا سحنته اللون القرمزي، بقبضته على المنضدة في وقذ بلغ من شدته أن ممثلتين في (غرفة ثياب الممثلات) سقطتا في غيبوبة. . . صاح الطائر الأزرق:

ـ (أو صدقته؟ أو صدقت ذلك الصعلوك الحقير؟! أتود أن البسط به الأرض؟ أترغب في أن أصرعه أمامك كالكلب؟ آه. . . سأجعل جسده كشرائح اللحم. . . سأهشم رأسه!)

راح كل من كان يسير في منتزه المدينة ذلك المساء بالقرب من (المسرح الصيفي) يذكر كيف أنه قبيل الفصل الرابع شاهد رجلا حافي القدمين، شاحب لون الوجه، تختلج عيناه

بالرعب والهلع، وهو يهرول خارجاً من المسرح منطلقاً، يركض في الطريق الرئيسي، وكان في أثره شخص آخر مرتدياً ملابس الطائر الأزرق يحمل في يده غدار. . . ولم ير أحد ما حدث بعد ذلك.

ولكن شاع بعد فترة من الزمن أن مركين (ضابط البيان) التزم فراشه لا يغادره مدة أسبوعين بعد أن قابل بلستنوف في المسرح الصيفي. . . وكذلك أضاف إلى عبارته المعهودة: (أنا رجل منهوك، مصاب بالنقرس المزمن). جملة جديدة: (كما أني جريح منخوب الفؤاد). . .

في الظلام...

الكـون غـارق في السـكون. . . والفضـاء العريض يموج في رهبة، وقد هجع كل حـي إلى مضجعه يتقلب في جنوبه. . . والطير قابعة في أوكارها تحتضن صغارها. . . حتى من وكـل إليه الأمن قد سرت سنة مـن النـوم إلى جفونـه فراح يغط في خفقة وسبات.

ولف ظلام السحر كل شـيء سـوى غلـس الصبح الوليد في الشرق وهـو يتجلبـب بصـفرة شاحبة. . . وعلى حين فجأة ولجت ذبابة أنف (جـاجن) مسـاعد المحصـل. . . لعـل حـب الاستطلاع أو لزق الطيش هو الـذي دفعهـا إلى ذلك العمل، أو لعلها الصدفة المحضة. . .

بيد أن خياشيم الأنف ساءها ذلك الـدخيل فانفكت تعطس وتعطس. . . فأفاق (جاجن)

إبان هذه الموجة الحادة من العطس وقد بلغ من حدتها أنه كانت ترج الفراش رجاً عنيفاً. . .

أما زوجة (جاجن) وتدعى (ماريا ميلوفا) ـ وهي امرأة مفاضة فارغة حسناء الوجه ـ فهبت في هيعة وفزع، وقلبت طرفها يضرب في حلكة الظلام الدامسة، وحملقت فينة ثم انطرحت على جانبها الآخر. ولم تلبث بعد فترة وجيزة أن عادت إلى ما كانت عليه، وأرخت أهدابها عسى النوم يدب في عينيها ثانية. . . ولكن هيهات فقد سرى السهاد إليهما فلم يغمض لها جفن. . .

نهضت من فراشها، واحتذت نعليها وقامت إلى النافذة حيث تجول بصرها في أكناف ذلك الليل البهيم. . . وقد بدت فيه سامقات الشجر كأنها عمالقة من الشياطين. . . وندت عن (ماريا) صيحة فيها عجب وفيها فزع

قطعت الصمت الـذي شـاع في ثنايـا الظـلام. كانت تحملق أمامها وقد ثبت بصرها على شبح يتسلل في رفـق وحـذر إلى صـحن الـدار. . . فدار بخلدها أنه ربما كان جـواداً نـافراً، ولكـن مقلتيها ما لبث أن وضح لهما ذاك الشـبح فـإذا به رجل يتشح بـالظلام. وأومـض بعقلـها أنـه لص في سبيل السرقة. فاكتسى وجهها شـحوباً أضفاه عليه الذعر وصفرة الغلس. . .

وفي لحظات نشط ذهنها يصور بيراع الخيـال أوهامـاً وأوهامـاً. قوامهـا سـيدة تعـيش في الريف، ثم سـارق يتلصـص خفيـة إلى حجـرة المطبخ. . . ومن المطبخ إلى حجرة الطعام. . وثمت الأشياء الفضية من ملاعق وقواطع. . . وبعدئذ إلى مخدع النوم وفي يده فأس حيث يعثـر على الحلي والنقود. . . ولم تلبـث أن هـوت

ركبتاها، وسرت رعدة من أم رأسها إلى أخمص قدميها. . .

راحت تهز زوجها وتهتف في هلع (فاسيا. . . باسيل. . . انهض. . . آه يا إلهي لكأنه فارق الحياة. . . استيقظ أيها الرجل باسيل أتوسل إليك. . . انهض. . .) فقبع مساعد المحصل في فراشه، وقال في صوت شابه اضطراب في قرارة نفسه (حسناً!).

ـ (بالله أفق. . . هناك سارق تسلل إلى المطبخ، لقد كنت قائمة عند النافذة، عند ما لمحته يختفي في نافذة المطبخ. . . إنه بلا ريب سيجتازه إلى غرفة الطعام حيث الملاعق والصوان. . باسيل! لا تدري أنهم هاجموا (مافرا يجروفنا) في العام الماضي؟!)

ـ (هه. . . ما الذي حدث؟!).

ـ (آه! . . يا للسماء. إنه لم يدرك بعد ما أنطق به. . . أنصت أيها الأبله، هناك لص ولج نافذة المطبخ، وسوف ينخلع فؤاد (بلاجا) فزعاً وفرقاً. . . هذا مع أن الأشياء الفضية في الصوان بغرفة الطعام. . .).

ـ (هذا حديث لغب؟. .).

ـ (باسيل. . . لا أطيق ذلك. . . أخبرك بالخطر الجاثم، وأنت تفحفح في نومك غير ذي بال؟! ما الذي ترجو من وراء ذلك؟! أتشاء أن نجرد من أموالنا وحاجياتنا؟).

فثاب مساعد المحصل إلى نفسه وقام من فراشه يملأ صدره بنسيم السحر المنعش. ثم تثاءب في تؤدة ومهل. . . وراح يتمتم:

ـ (ليس ثمت من يقف على سريرة تلك المخلوقات الضعيفة العجيبة. . . النساء.

سوى الله! . أما بمقدورك أن تتركي الإنسان يغمض جفنيه جنحاً من الليل لا تـزالين تهزينـه حتى يستيقظ، فتطرقي سمعه بهذا اللغو!).

ـ (ولكن أقسم يـا باسـيل أنـي لمحتـه وهـو يداف إلى حجرة المطبخ!).

ـ (وما الذي يثير عجبك من ذلك؟! إنه بـلا شك الجندي الذي يعشق (بلاجا) وتعشـقه. . ويسرى إليها على الدوام في هزيع الليل . .).

ـ (هه! . . ما الذي تفوه به؟! .).

ـ (إنه الجندي الذي يعشق (بلاجـا). . .) فصاحت (ماريا ميلوفنا) في زحير.

(علة أقـبح مـن العـذر. . . إن التلصـص أخف وطأة منها. . . لست أرضـى عـن هـذا الفاسق بداري. . .).

ـ (عجباً. . . إننا طهيرا الثوب عفينـاه. . فما الذي يضيرنا من وجود هذين الفاسـقين؟!

وما نفيد من تدويم هذه الكلمات الجوفاء؟ يا فتاتي إنها الحياة. . . وهكذا جبل الخلق منذ فطر العالم وما هذا الجندي بملاك يعف عما درج عليه غيره. . .).

ـ (كلا يا باسيل. . . فهذا ما لا يتفق وهواي. . . إني لا أكاد أتصور أن مثل هذا!. هذا!. يحدث في عقر داري. . . ينبغي عليك أن تهم إلى المطبخ، وتطرد هذا الفاسق شر طردة وفي الغداة سأنهي إلى (بلاجا) أنها ستفقد عملها إن هي عادت فسلكت هذا السبيل الشائن، وحين أغادرك إلى ظلمة القبر وأودع الحياة. . . فافعل ما يحلو لك. . . ولكن إياك أن تأتي ذلك، وأنا على قيد الحياة. باسيل! أتوسل إليك أن تقوم إليهما. . .)

فقال (جاجن) في نهيم وتذمر:

(عليك لعنة الله . . . بالله تـدبري بمنظـارك النسائي الضعيف : ما الذي أفعله لهما؟!) .

ـ (باســيل! . إنــي لأحــس أن الإغمــاء يغشيني . . .) . فعجل (جاجن) بوضع قدميه في نعليه . . . وراح يهمـر لعناتـه في سـبيله إلى المطبخ . . .

وكان الظلام يطوي كل شيء تحت مطارفـه السـود . . . فـراح مسـاعد المحصـل يـتلمس طريقه في حذر . . . واتخذ وجهتـه نحـو غرفـة الأطفال، وأيقظ الحاضنة قائلا في نحيط :

(لقد أخذت معطفي لتنظيفه مما علـق بـه! . فأين هو؟! يا (فاسيليا)!) .

(لقــد ناولتــه (لبلاجــا) لتنظفــه . . . يــا سيدي!) .

ـ (يــا للعبــث . . . أنــت تأخذينــه ثــم ترديه! . . ماذا اطرح على جسدي الآن؟!) .

وما كاد يصل إلى المطبخ حتى اتخذ سبيله إلى ركن قام فيه صندوق من الخشب رقدت عليه الطباخة (بلاجا) . . . فقال وهو يتحسس كتفيها، ويهزهما في عنف (. . . بلاجا! . . بلاجا! . . لا تدعي النوم أيها الخبيثة الماكرة. . . من الذي ولج غرفتك منذ برهة وجيزة؟!).

ـ (سي! . سي! . سيدي! عم صباحاً: من الذي يجرؤ على ولوج غرفتي؟!).

ـ (آه. . . دعينا من هذا النفاق والإنكار فليس هناك مجال لتصديقهما. أنهضي. . . لقد أسرى ذلك الشرير إلى غرفتك، وأنت راضية عن ذلك! . ألا تسمعين؟ وليس هناك ما يدعوه إلى الحضور سوى أنت!).

ـ (هه! . سيدي. . . أمستك لوثة من الشيطان، فتقذفني بهذا الهذيان؟!

رحمـــاك يـــا رب . . . أظننـــتني بلـــهاء ساذجة؟ . أشقي هنا سـحابة يـومي ولا أركـن للراحة ولو لحظة . . . وتـأتي في هزيـع الليـل فتحـدثني هكـذا! . ولا أتقاضـى عـن كـدي وإخلاصي في خدمتك سوى أربـع روبـلات في الشهر . . . إني لأرغب العيش عند تاجر مـن التجـار علـى أن أقابـل بمثـل هـذا الجحـود والإهانة!) .

ـ (انهضـي! . . انهضـي . . لا سـبيل إلى التنصل بالشكوى والتذمر . . . آه . . . لابـد أن يغادر عشيقك هذه الغرفة فوراً . . ! أوعيت ما أقول؟! .) .

فقالت (بلاجا) وقـد هـدجت مـن صـوتها بـوادر الـدمع : (لابـد أن هـذا يخجلـك يـا سـيدي! . أهكـذا تفعلـون معشـر المـتعلمين؟ أتسمح لكم أنفسكم أن تتهمونا وتقسـوا علينـا

بدلا من أن ترفهوا عنا، وتفرجوا عن أنفسنا؟!
نعم من السهل عليكم أن تهينونا. . فليس هناك من ينبري لنصرتنا ويقف إلى جانبنا).
وانفجرت الدموع من عينيها فراحت تنوح وتنهنه. . .

ـ (هيا. . انهضي. . . فما يجوز على هذا الخداع. . . لقد أرسلتني سيدتك لأخبرك أنها رأت شريراً يدلف إلى غرفتك!) ولكن (بلاجا) راحت تديم نواحها ونشيجها. . . فلم يجد (جاجن) بدا من أن يعترف من قرارة نفسه أنها مظلومة طاهرة وقد ألصق بها هذه التهمة الشنعاء إفكا وبهتاناً. . .

وهم بالعودة إلى زوجته وهو يقول: (بلاجا. . . لقد أخبرتني (فاسيليا) أنها ناولتك معطفي لتنظيفه مما علق به فأين وضعتيه؟!)

ـ (آه . . . معـذرة يـا سـيدي . . . لقـد غفلت عن وضعه على مقعدك . . . إنه معلـق على المشجب القريب من الموقد!) .

فطرحه (جاجن) علـى منكبيـه، ومضـى في هدوء إلى غرفة زوجه . . .

أما (ماريا ميلوفنا)، فلبثـت تنظـر بعلـها في قلق وهي تهس وتهجس :

ـ لقد مضى منذ حين ولم يؤب! لعـل ذلـك الجندي الشرير لبط به الأرض . . . لعل . . . لعل . . .

وعادت تصور بيراع الخيال صورة لزوجها، وهو يمضي في ظلام المطبخ . . . ضربة أم رأسه من فأس . . . موت بلا نبس، ودم يتدفق مـن جروح مثخنة . . . وانقضت إثـر ذلـك خمـس دقائق في إثرها خمس . . . ثم نصف ساعة . . . وأخيراً هاهي ذي الساعة قد بلغت السادسـة

ودقاتها ترن في جوف الليل البهيم فتزيده رهبة وجلالا . . . فتبلبل جبينها بعرق بارد وهي غارقة في فراشها، وصاحت على غرة: (باسيل . . . باسيل . . .) فأجابها صوت زوجها على مقربة: (ماذا دهاك؟! لم تصرخين هكذا؟ هاأنذا . . .)

ـ أأصابك سوء؟!

ـ سوء؟ كلا . . .

ومضى إلى حافة الفراش وهو يقول:

ـ (ليس هناك أحد على الإطلاق! إنها أوهامك وقسوتك على هاته المخلوقات . . إن بلاجا لا تقل عنك عفافاً وصوباً . . . كم أنت حمقاء! كم أنت . . .)

وراح ذلك السيل من السباب واللعن يتدفق من فم (جاجن) لقد داعب الأرق جفونه فعبثاً يحاول النوم ثانية . . . فقال وهو يضحك:

إنــك لواهمــة، مجهــدة الأعصــاب. . . ويعوز نفسك المضطربة فترة مــن الراحــة. . . يجمــل بــك أن تــذهبي في الغــداة إلى الطبيــب فتخبريه بهذه الأوهام والخيالات. . . فيتبصر في حالتــك ويصــف لــك مــا يــريح أعصــابك المكدودة). . .

فقاطعته زوجه قائلة:

ـ (ما هذا!! رائحة. . . قطران!! أو شيء آخــر كــالثوم أو البصــل إن يتخلــل أنفــي في حدة.).

ـ (نعم! ثمة رائحة غريبة. . . لست بنائم. سأشعل الشمعة، أين أعود الكبريــت. . . آه تذكرت، سأعرض عليك صورة لمحصل قصر (جستيل) العظيم. . . فقد أعطى كل من كان في المكتــب نســخة مــن صــورته عنــدما ودعنــا البارحة. . .).

أشعل (جاجن) الشمعة وقبل أن يخطو خطوة لإحضار الصورة رنت في أذنه صرخة ندت عن زوجته. . . فلما التفت إليها رآها تحملق فيه وقد اتسعت مقلتها واستقرت عليه. يطل منها الفزع والهلع والعجب والسخط في آن واحد. . .

صاحت زوجته وقد علا وجهها الشحوب: (أتناولت معطفك من المطبخ؟!).

ـ (لم؟!).

ـ (انظر إلى نفسك!).

وما كاد يبصر (جاجن) ما على جسده حتى راح يحدق في عجب وذهول. . . لم يكن مطروحاً على كتفه معطفه بل معطف الجندي الشرير. . . ماذا أتى به إلى هنا!! وبينما كان يوجه إلى نفسه هذا السؤال. . . قالت زوجته في غمغمة نمت عن سخرية وسخط (أتقول؟ إن

(بلاجا لا تقل عني عفافاً وصوناً) . . . أيها الخنزير الأبله) .

ثم غرقت في شعاب الفكر وعاد يراع الخيال يرسم صورة مخفية :

ظلام . . . هدوء . . . همس ! . . و ! .

obeikandl.com

عمل شاق...

كانت ليلة من ليالي شهر مارس، والسحب مدجنة مطلخمة، وقد اسبطر الضباب فطوى الأرض والسماء في مطارفه. . حتى لا يكلف المرء نفسه الخطو خيفة العثر. . وهب الحارس فجأة وقد طرق أذنيه لغط وهسيس لبعض من الناس يمضي في مطارب المقبرة. وصاح في هيعة وتحوب (من ثمت يسرى؟). ولكن دون مجيب. . فراح يرجع صيحته قد توجس همساً وهجساً (من ثمت يسرى؟!) فأجاب صوت مختلج لرجل هرم. (أنا ذا. . أيها الرفيق.)

ـ ولكن من أنت؟!

ـ أنا رجل جوال.

فصاح الحارس في صوت حاول أن يستر به رنة الفزع التي سرت إليه:

ـ أي شيطان رمى بك إلى هنا؟! أتجول قدميك في المقبرة ليلا؟ أيها الشرير الخبيث!

ـ وَىْ! أتقول إن هذه المقبرة؟!

ـ وما في ذاك؟! إنها مقبرة. . ألا تلمح ذلك؟.

فتنهد الرجل الهرم قائلا: (آه. . يا للسماء. ما أقدر على إبصار شيء أيها الرفيق. . إن الظلمة لحالكة. . الظلمة. . فما يستطيع الإنسان أن ترى يده وهي أمام وجهه!

ـ ولكن من أنت؟!

ـ أما قلت لك. . زائر. . أيها الصديق، رجل جوال فنبس الحارس في يقين: (إلى الشيطان. . يالكم من معربدين أيها الجوالون، كل منكم يطل يجرع الخمر، ويأتي إلى هنا يقلق

راحتنا ويسبب متاعبنا ليلا . . ولكـن . . لقـد سمعت أصواتاً تهمس معك فأين أصحابها؟!

ـ إني بمفردي يا صديقي . . إني وحيـد . . آه يا إلهي فـدنا الحـارس مـن العجـوز ووقـف إزاءه وسأله :

ـ كيف حضرت إلى هنا؟!

ـ لقد ضللت سبيلي يا سـيدي بينمـا كنـت أروم طاحونة (ميتريافسكي) . .

ـ وي . . . أهـــذا طريـــق طاحونـــة (ميتريافسكي)؟ أيهـا الشـرير؟ كـان ينبغـي أن تسري إلى يسارك ثم تدوم سيرك على استقامة . . . يخيل إلى أنـك تناولـت بعضـاً مـن أقـداح الخمر، فتنكبت سبيلك!

ـ نعم . . . لقد أتت يـداي هـذه الخطيئـة، فما ثمت سبب للإنكار . ولن أعود فأركب هذا

المتن الخاطئ ثانية . . . بالله أين الطريق الذي علي أن أسلكه؟

ـ امض أمامك في هذه المطربة حتى نصل إلى باب المقبرة، فافتحه، وانطلق إلى حال سبيلك . . . حاذر أن تعثر بالخندق فتتردى فيه . . وستلاقي الطريق حيث يمكنك أن تصل إلى الطاحونة إن سلكته .

ـ اسأل الله أن يسبغ عليك وافر الصحة والخير . . . أيها الرفيق، ويطهرك من ذنوبك برحمته وغفرانه . . . ألا يمكنك أن تصحبني حتى الباب . . . فيضاعف ثوابك، فما أكاد أتلمس طريقي في تلك العتمة . . .

ـ كأني بك ترى عندي الوقت الذي أضيعه عبثاً في السير معك . . . امض وحدك .

ـ كن رحيما يرحمك الله . . . فسأصلي من أجلك . إني لا أكاد أرى طريقي فالظلمة حالكة . . . بالله أرني الطريق .

ـ أيدور بخلدك أن وقتي متسع لصحبتك أيها الشرير الكهل !

ـ نشدتك الله . . . قدني إلى الباب . . . لا أقدر على أبصار شيء ، كما أنني أخشى هذه المقبرة وما يجول فيها من أرواح وأشباح . . . هيا معي يا سيدي . . . بالله رافقني . . .

ـ ليس سبيل إلى الخلاص منك ومن ثرثرتك ، هيا إذاً معي أيها العجوز . . .

ومضى الرجل لان متلاصقين في صمت رهيب . . . وهبت الريح صرصراً تصطك منها الأسنان ، والأشجار ضاربة في جو السماء تصفر في رهبة كأنها صراخ الجن . . . ويساقط

منها الطلل والندى . . . وقد تناثرت في ساح المقبرة المناقع الضحلة . . .

وبغتة قال الحارس بعد أن طال أمد الصمت بينهما :

ـ ثمت شيء يثير حيرتي وتساؤلي ! كيف تسنى لك أن تدلف إلى هنا مع أن الباب مقفل ؟ ! أتسلقت الحائط ! ؟ ما أظن ذلك فأنت هرم ، فأنت آخر من أتي هذا العمل ! .

ـ لست أدري ! أيها الرفيق . . . لست أدري كيف أتيت إلى هنا . . . لعمري إنها مشكلة . . . رحماك يا رب . . . لا بد أن الشيطان مس عقلي ، ألست حارس المقبرة أيها الرفيق ؟

ـ بلى . . .

ـ أنت وحدك تقوم بحراسة كل هذه المقبرة ؟ !

وارتفعت حينئذ ريح عاصف كادت أن تنتزعهما من مكانهما فلما هدأت حدتها عاود الحارس حديثه مجيباً:

ـ إنا هنا ثلاثة رجال: واحد مضطجع في فراشه محموم، والآخر مستغرق في نومه، ونحن الاثنين نتبادل الحراسة. . .

ـ حسن. . . آه، يالها من ريح عاصف يكاد أن يسمع صفيرها الأموات في قبورهم. . إنها تزأر كالوحوش الكاسرة. . . آه. . . آه. . .

ـ ولكن من أين أتيت إلى هنا؟

ـ كنت عند صديق في إقليم (فولجدا) على مبعدة من هنا. . . إني أتجول من مكان إلى آخر حيث أصلي وأعظ. . . اغفر لي يا إلهي. . .

توقف الحارس هنيهة ليشعل غليونه، وقام الرجل العجوز بينه وبين الريح. . . وأبرق عود الثقاب على المطربة التي يسلكانها واستقر شعاعه على بعض أحجار القبر التي إلى جانبهما؛ فأشعل العود الثاني فتألق ضوؤه ثم خبا على حين فجأة. . . أما العود الثالث فألقى بشعاعه إلى اليمين وإلى الشمال، فتمكن من إشعال غليونه قال الرجل الغريب:

ـ إن الراحلين راقدون. . . الراحلين الأعزاء. . . أنهم يرقدون سواسية لا فرق بين غني وفقير، حكيم وأحمق، قوى وضعيف، إنهم على حال واحد الآن. . . وكذلك سيمكثون إلى أن ينفخ في الصور وتبعث الأموات من القبور. . . أن هذه الحياة الدنيا لفانية مضمحلة أما الحياة الأخرى فخالدة سرمدية. فقال الحارس في جلال:

ـ نعم . . . إننا لنسير في هـذا المكـان الآن، وبعد حقبة تطوينـا هـذه الأرض فنصـبح نسـياً منسياً . . .

ـ لا مجال لريب في ذلك . . . كلنا جميعاً . . جميعاً إلى هذا المصير سائرون . وليس ثمـت مـن يخلد على أديـم هـذه الأرض . . . أواه . . . إن أفعالنـا لآثمـة، وأفكارنـا تطمـح إلى آمـال كالسراب . إن الخطيئة لتسيطر علينا وليس ثمت خـلاص مـن قضـاء الله سـواء في الـدنيا أو في الآخـرة . وإنـي لغـارق في خطيئـاتي كالحشـرة تسعي في جوف الأرض . . .

ـ أجـل . . . ورب منيتـك كانـت قلـب قوسين منك!

ـ إنك لعلى صواب وحق، أيها الصديق .

فقال الحارس وهما يحثان الخطأ نحو الباب .

ـ إن الموت لأدنى إليكم معشر الجوالين منا نحن من نستقر في الأرض على الدوام!

إن هناك أنواعاً متباينة من الجوالين يا سيدي. فمنهم من أنزل الله السكينة على قلبه، فراح يصلي ويعبد ربه. ومنهم من أصابه الفجور فراح يعربد ويأتي المنكرات وليس له رادع يردعه عن أفعاله. وإن هؤلاء يجولون في المقابر لتتصل أنفسهم بالشياطين.

وهناك من في مقدورهم أن يهووا بفأسهم على هامة رأسك فتخر وقد بت على شفا الموت. . .

ـ هه. . . عم تتحدث أيها العجوز؟!

ـ آه. . . لا شيء. . . يخيل إلى أن هذا هو الباب. . . نعم إنه هو. أرجو منك فتحه. . .

فتلمس الحارس طريقه وفتح الباب، وقاد الرجل إلى الخارج من منكبه وقال:

ـ هذا هو منتهى المقبرة. . . وعليك بالانطلاق عابراً الحقول حتى تدرك الطريق، وحاذر الخندق أن تتردى فيه. وإذا ما لحقت بالطريق العام فانثن إلى يمناك وواصل سيرك حتى تصل إلى الطاحونة التي ترومها. . .

فزفر العجوز بعد فترة صمت:

ـ هيه. . . ولكن ما الذي يدفع بي إلى الذهاب إلى طاحونة (ميتريافسكي) إني أفضل البقاء هنا على المضي إلى هناك يا سيدي. . .

ـ وما الذي ترجوه من اللبث هنا؟!

ـ ستجد مني من يؤنس وحدتك، ويفرج عنك كربك.

ـ العلك رجل لطيف المعشر، حلو النكتة؟!

ـ بـلا شـك يـا سـيدي . . . فستضـل تذكرني . . . تذكر ذلك الجوال على الدوام .

ـ ولم تظل ذكرى إنسان مثلـك ببـالي علـى الدوام؟ !

قال العجز في صوت أصحل ساخر :

ـ هـه . . . اسمـع . . . إنـك تمعـن في الجفاء . . . وأنا أتبسط في الحديث . . . فما أنا بجوال كما أنبأتك !

ـ إذن من أنت؟ !

ـ رجل ميت لقد خرجت الآن مـن لحـدي . ألا تذكر (جبرياف) القفال الذي شنق نفسـه في عيـد (الكرنفـال) . . . حسـن . إنـه أنـا (جبرياف) .

ـ بالله خبرنا بشيء غير هذا . . .

لم يصدق الحارس لفظة مما قالـه العجـوز ، ولكن سرت قشـعريرة الهلـع في جسـده فـراح

ينتفض فرقاً . . . ويسرع بالنأي عـن البـاب، فقبض الرجل الغريب على كتفة وهتف قائلا :

ـ قف . . . أتمضي وتدعني وحدي أعـاني مرارة الوحدة . . . فصاح الحارس وهو يحاول نزع ذراعه من براثن ذلك العجوز :

ـ دعني أذهبّ دعني أمض بسلام!

ـ قف . . . إني آمرك بالوقوف، وسـتقف حتماً . . . لا تناضل أيها الكلب الرعديـد . . إن كنت تبغي الحياة . فقف حتى آذن لك ؛ هذا لأني لا أود أن أسفك دماً حقـيراً كـدمك أيهـا الخنزير الجبان . . . قف مكانك . . .

وتهاوى الحارس، وقد سرت عنه شـجاعته فـأغمض جفنيـه وراح يرتعـد ويرتجـف وقـد طارت نفسه شعاعاً . . . إنه يسـتطيع الصـياح والاستغاثة ولكن عبثاً يحاول . . . فلـيس مـن حي تصل إلى أذنه صيحاته . . .

قام الرجل الغريب إلى جانبه وساعده في ثبات وقسوة. . . وتقضت ثلاث دقائق والكون غارق في صكت رهيب. . . فعاد الغريب يقول:

ـ واحد مريض محموم، والثاني غارق في النوم، والثالث يلقى الجوالين بجفاء وبرود. . ألا بالله خبرني يا سيدي الحارس كيف تستحقون مرتباتكم، إنكم كاللصوص ولكن في الخفاء. قف مكانك. . .

انقضت خمس دقائق ثم تلتها عشر والصمت لم ينفك مخيما على المقبرة. . . وعلى حين غرة. . . قطع هذا الصمت صوت صفير سرى في جنح الليل. . . فقال الغريب إثر ذلك وهو يطلق ذراع الحارس: (حسن. . . الآن. . . امض. . . امض، واذكر أن الله يرقب أعمالك الشائنة. . .)

ثم أطلق صفيراً ـ يشابه سرى مذهنيهة ـ وانطلق خارجاً من باب المقبرة. . . وسمعه الحارس وهو يجتاز الخندق قفزاً ووقف الحارس هنيهة جامداً لا يتحرك. . . يرتعد فرقاً. . . كأن الغريب ما زال ماثلا أمامه.

ولما انقلب عقبه في المطربة طرق أذنه أصوات لأقدام تتسارع في سيرها، وسؤال يجري على لسان يقول: (أنت (تيموفي)؟ أين (ميتكا)؟) وابتعدت عنه الأصوات فراح يجد في سيره حتى لمح شعاعاً يخفق في الظلام. . . فلما أمعن في الدنو، وضح له الشعاع فراح يردد:

ـ كأن النور يشع من الكنيسة!. من أين أتى هذا الشعاع يا إلهي. . . فرج كربتي. .

دار الحارس حول الكنيسة حتى وقف أمام نافذة محطمة فراح يحملق نحو المذبح. . . في هلع وفزع. . وكانت هناك شمعة خلفها

وراءهم اللصوص تخفق في رهبة، وتلقى الظلال الدامسة في الأرجاء. . . وقلب الحارس طرفه فرأى الخزانة مقلوبة محطمة وقد فتحت على مصراعيها، واختفى ما كان بها من كنوز وأموال. . .

وكذلك ذهبت القرابين وغيرها. . وأدرك الحارس سر ذلك الرجل الغريب الذي راح يداوره ويبعده عن الكنيسة حتى يهيئ الفرصة لزملائه اللصوص. . .

ومضت برهة، وعادت الريح تعصف وتصفر في جنون وكأنها تسخر من ذلك الحارس المسكين.

الحُمَّى

كان القطار ينساب بين الربوع في سرعة وفي صخب، بعد أن خلف وراءه (بتروغراد) وغايته (موسكو)! . . . وفي إحدى عرباته جلس الضابط (كليموف) وهو شاب تجلت على سيمائه آيات العناء والألم! .

وكان رفيقه ـ الذي قعد مواجهاً له ـ رجلاً طاعناً في السن! . حليق الذقن . . . تلوح عليه دلائل الثراء والعيش الرغد. ويخيل إلى المرء أنه من أبناء (فينلندا) أو (السويد). . . لم يبرح طيلة السفرة. . . يدخن (غليونه)، وينفث هباءه في الهواء! . . . وكان ثرثاراً مهذاراً، نهماً إلى الحديث، شرهاً إلى الكلام. . . لا يفتأ يلفظ بهذره حول معنى واحد. . . دون تنويع ولا تبديل! . . .

ـ (هـا! . إنـك ضـابط! . كـذلك لـي أخ ضابط؛ بيد أنـه نـوبي يجـوب البحـار! . . ألا خبرني ما الداعي لذهابك إلى (موسكو)؟! .)

ـ (إن لي مقاماً هنالك!! .)

ـ (ها!! أما تزوجت بعد؟!)

ـ (كـلا . . . إنـي أعـيش مـع خـالتي وأختي! .)

(إن أخي ضابط كذلك، غير أنه متزوج . . وقد أنجبت له امرأته ثلاثة أطفال . . . ها!! .)

وكان الرجل الفنلندي ينظر ـ خلال ذلـك ـ في بلاهـة وغرابـة . . . وتترسـم علـى شـفتيه ابتسـامة تعـبر عمـا يخـتلج في نفسـه مـن جـزل ومرح، حينما يهتف: (ها!! .)

أما كليموف ـ وكان يشعر بدوار وصداع في رأسه، ويحس بفتور ودعث في جسده ـ فقد برم بالجواب على أسئلته . . . وراح يحمل عليه في

قلبه إصراً وبغضاً! . . . وتراود نفسه رغبة جامحة في أن يختطف غليونه. . . ويلقي به تحت المقعد، ويأمر (الفنلندي) نفسه بالبحث عن عربة أخرى. !

وقال يحدث نفسه ـ وقد ضاق به ذرعاً (ما أفظع أولئك (الفنلنديين) وأبغضهم إلى النفس! . إنهم أوغاد مذقو الخلق، أولو خسة وذوو سفه. . . لا يأتون إلا كل تافه غير محمود من الأفعال. . . وما خلقوا إلا ليعوقوا العالم فحسب! . فما أدري مكرمة ذاعت لهم، ولا حسنة أثرت عنهم! .).

وزاد إحساس الضباط الشاب بما يكتنفه من وعك وكآبة وألم! . فعلا وجهه شحوب وامتقاع. . . وسرى الجفاف والظمأ إلى حلقه فلذغه لذعاً شديداً، وضاقت رأسه ـ وقد ثقلت تحت وطأة الصداع ـ بما يضطرب فيها من

أفكار سوداء تجول بخاطر معربدة صاخبة على غير هدى. . . ثم لا تلبث أن تفيض على ما حوله من مقاعد وأناس يلوحون في حلكة الظلام! . . .

ويطرق سمعه ـ في عنف ـ خليط من الهرج والمهرج. . . يترامى إليه من بلبلة الأصوات وضوضاء العجلات، وصفق الأبواب وهدير الأجراس وصفير القطار وضجيج الناس وعجيجهم في كل محط يقف به!.

وكان الزمن يمضي متباطئاً على مهل حيناً، وسريعاً على عجل حيناً آخراً. . . ولاح لكليموف وكأن القطار يقف كل دقيقة في محطة!. وتمر به القطارات الأخرى سراعاً يلاحق بعضها بعضاً بينما قطاره يتهادى في سيره ويدوي ويجلجل! . . .

إن مسمع تلك الجلبة وذلك الصفير . . ومرأى هذا الفنلندي وهذه الحلقات من الدخان ينفثها من غليونه في الهواء . . . كل ذلك تمازج مع الكآبة السوداء التي تعتديه في إيهام . وتمخض عنه كابوس مخيف يجثم على صدره، ويكاد أن يزهق أنفاسه! .

وبينا هو في غمرة ذلك العذاب الأليم، ورفع رأسه المصدع ونظر من خلال عينيه الذابلتين . . . إلى المصباح! . وقد راح يرسل ضوءاً واهناً متراقصاً لا يثبت على شيء . . ويعقد الظلال، ويشيع جواً من الرهبة والغموض!!

وود (كليموف) لو يرفع صوته بطلب شربة ماء . . . ولكن لسانه جمد . . . فقد يبس ريقه وجف حلقه من حرقة الصدى! .

كما أن قوته وهت عن أن تجيب (الفنلندي) إلى ما يسأله إياه، وتستمع إلى ما يهذي به.

فحاول أن يمدد جسده على المقعد حتى تداعب عينه سنة من النوم. . . ولكن النوم أبى عليه أن يأخذ بمعاقد أجفانه. وظلت تلك الكآبة القاتمة والخواطر السوداء والصور الغريبة تعبث به وتعيث من حوله. . . في حين أن ذلك (الفنلندي) نام ملأ جفونه ما حلا له النوم، وعلا شخيره؟. ثم أفاق من نومه وأشعل غليونه وطفق يحدثه ويردد (ها!!.) ثم لم يلبث أن غط في النوم من جديد! وتحامل (كليموف) على نفسه في (سبيروف)! ونهض يسعى في طلب الماء!. فامتد طرفه إلى فريق من الناس يجلسون إلى مائدة حافلة بالطعام، ويأكلون في شراهة وعجلة. . . فتمتم وهو يحاول أن ينأى بأنفه عن رائحة الشواء ويشيح

بوجهه عن مرأى أولئك القوم وهم يلوكون الطعام في أفواههم المكتظة: (كيف يأكلون؟!)

ثم لمح بعد ذلك امرأة وضيئة تتحدث إلى رجل عسكري يضع على هامته قلنسوة حمراء.

وتبتسم له، فيفتر ثغرها عن أسنان كالدر المنظوم. . . ولكن أثارت تلك الابتسامات وتلك الأسنان اللؤلؤية وتلك السيدة الوضيئة ذاتها عاصفة من السخط والحنق في نفسه!.

وإذا ما أدرك بغيته من الماء!. قفل راجعاً إلى مجلسه. . . فألفى (الفنلندي) قد استوى على كرسيه يدخن، فلما أبصره (الفنلندي) قال له في شيء من العجب: (ها!! أي محطة هذه؟!) فأجابه كليموف في صبر نافذ وقد استلقى على مقعده وضم شفتيه حتى لا يتسلل إلى حلقه دخان الغليون الحاد اللاذع: (لست أدري!.)

ـ (متى نصل إلى مدينة (تفر)؟!. . .)

ـ (لست أدري! ومعذرة إن كنت لا أستطيع الكلام إني مريض ضيق الصدر!!. . .)

فطرق (الفنلندي) حافة النافذة بغليونه!. وطفق يحدثه عن أخيه البحار فلم يعره (كليموف) أدنى التفات ولم يكترث له بل راح يفكر في فراشه الوثير اللين. . . وإبريقه البلوري ذي الماء العذب القراح. . . ويتصور في خياله أخته (كاتي) التي تعرف وكيف تروض نفسه وتخلع بزته وتحنو عليه وترنو إليه!. ثم ترسمت على شفتيه بسمة شاحبة، حينما تذكر خادمة الجندي (بافل) وهو ينزع حذاءه الضخم في رفق. . . ويضع الماء على المنضدة في هدوء!. . وخيل إليه إنه ما يكاد يستلقي على سريره ويجرع بعض الماء يطفئ به غلته. . . حتى يزول عنه ألمه، ويبرأ من سقمه! ويغط في نوم هادئ!. . .

عـادت تلـك الأصـوات تخـتلط في سمـع كليموف في هـرج ومـرج وراح يطـرق أذنـه في عنـف هـدير الأجـراس وصـفير القطـار . . . وضوضاء العجـلات، وهـي تنسـاب صـاخبة على القضبان! .

فدفن كليموف وجهه ـ وقـد تملكـه اليـأس ولح عليـه الألم ـ في وسـادة المقعـد . . . ثـم أمسك برأسـه بـين يديـه . . . وثانيـة راحـت تطوف بفكره خواطر عن أخته (كاتي) وخادمه (بافل) . . .

ولكن أخته وخادمه اختلطا ـ هـذه المـرة ـ في الصـور الـتي تتهيـأ لـه والأشـباح الـتي تتمثـل لوهمه . . . ولفحت وجهه حرارة زفراته التي تردها عليه الوسادة . . . وقد دفنه فيها! .

وتسـرب الـوهن إلى عظامـه فشـقت عليـه الحركة . وتسلل من النافذة تيار هـوائي بـارد،

فأصاب ظهره . . . بيد أنه لم يحرك ساكناً وأبى أن يغير الوضع الذي استقر عليه جسده .

ثم لم يلبث أن غاب في سبات قلق مضطرب ، سعى إليه فغل أطرافه وأغمض أجفانه ! ! . . .

فلما ثاب إلى رشده ـ بعد أن تقضي زمن طويل ـ رأي النهار بازغاً ، والشمس تبعث في أوصال الكون ضياءها ! . . .

وكان السفر يهمون بارتداء معاطفهم ، ويتهيأون لمغادرة القطار . . . حتى إذا وقف في الموضع الذي أعد له . . . أسرع الحمالون في مآزرهم البيضاء ، وأرقامهم النحاسية الصفراء . . . إلى الركب يحملون عنهم متاعهم وحقائبهم . . .

فألقى (كليموف) معطفه على منكبيه في حركة آلية . . . وغادر القطار ! . وأحس ـ

وهو يسير انه ليس هو. بل مخلوق آخر!. غريب. . . وأحس أن حرارة القطار مازالت ناشبة فيه. . . وأنه ما برح مصحوباً بذلك الصدى في حلقه. . . والأشباح من حوله. . والكآبة في نفسه. . . وهي التي جميعاً حرمت جسده لذة الرقاد وحبست عن عينيه نعمة النوم. . .

واستقل عربة ـ كانت واقفة خارج المحطة ـ بعد أن وضع أمتعته إلى جواره في تلك الحركات الآلية. . . وتقاضاه السائق (روبلا وخمس وعشرين كوب) حتى يبلغ به دارة في شارع (بوفارسكا). . . فأذعن لما أراده عليه، ولم يساومه وهو يعلم حقاً أن ثمت زيادة في الأجر. بيد أن النقود لم تكن ذا قيمة لديه في ذلك الحين!. . .

فلما بلغ بيته . . . تلقته خالته بالترحاب! . وقابلته أخته وهي غادة هيفاء شارفت ربيعها الأول من العمر . . فحيته بإيماءة رقيقة وهي ممسكة بقلم تخط به في كراسة معها . . . فتذكر أنها تتهيأ لامتحان تنال به إجازة التدريس . .

ولكنه لم يرد تحيتها ولا أجب على أسئلتها! . بل راح يلهث من الأتون الذي يضطرم في صدره . . . وانطلق على غير هدى ولا بصيرة . . يجتاز الحجرات إلى حجرته . . فارتمى على فراشه يئم ويتأوه .

وتراءت لخياله من جديد تلك الأشباح والصور التي لزمته في القطار! . الفنلندي وغليونه . . الجندي ذي القلنسوة الحمراء! . والسيدة ذات الثنايا اللؤلؤية . . ورائحة الشواء . وضياء المصباح الواهنة . . المتراقصة . ! ! فأفقدته صوابه وسلبته رشده

وجعلته لا يبصر ما حوله ولا يسمع تلك الأصوات القلقة على مقربة منه . !

فلما أفاق من غشيته . . ألفى نفسه مضطجعاً في فراشه . عاري الجسد أو شبه عار! . ولمح خادمه (بافل)، وذلك الإبريق البلوري ذا الماء العذب . بيد أن هذا لم يخفف من حدة مرضه، ولم يجلب عليه راحة أو سكينة . .

فما برحت أطرافه واهنة متيبسة يشق عليه تحريكها . ولسانه قد تشقق من جفاف . حتى عكدته وعلاه الطلا . وراحت ترن في مسمعه قهقهة ذلك الفنلندي وقولته : (ها!! .) .

وقام إلى جوار فراشه رجل بدين عظيم الهامة ذو لحية سوداء إنه الطبيب! . ينظر إليه في إمعان وتأمل، ولم يلبث أن نبس في صوت

ذي فيهقة وتشدق: (حسن!. حسن. . يا صغيري رائع . رائع . لقد برأت تماماً!. .).

فأثارت طريقة الطبيب في النطق، وضغطه مخارج الحروف حنق كليموف. . وأغضبته دعوته له بـ (يا صغيري)، وأسخطه ذلك التلطف البغيض الذي يبديه نحوه. فلما تمتم قائلا: (ما الذي يدعوك إلى مناداتي بـ (يا صغيري)؟. وما علة تلك الألفة التي تحدثني بها؟. عليك اللعنة!.) راعة من صوته جرس أجش صعق!. كاد أن ينكره!!.

كان الوقت يكر في سرعة ينزعج لها القلب، كزمن القطار!. فقد كان ضوء النهار يغمر الغرفة ويسطع في أرجائها. . ثم ها هي ذي عتمة المساء تخيم وتشيع في أنحائها!. ولكن الطبيب لم يبرح الغرفة، بل ظل فمه يتشدق بتلك الألفاظ البغيضة الثقيلة في كل حين!.

وعاد يتراقص أمام ناظره في فضاء الحجرة العريض صف غير ذي نهاية من الوجوه والسجن . . (بافل) . . الفنلندي . . القائد (تاروشفتش) . . والضابط (مكسيمنكو) . ! . وذو القلنسوة الحمراء . . . السيدة ذات الثنايا اللؤلؤية . . . الطبيب المتفيهق ! كلهم يتحدثون ويلوحون بأياديهم ! ويأكلون في نهم .

ولم يلبث (كليموف) أن أبصر ـ في بياض النهار الآفل ـ كاهن الكنيسة الأب (ألكسندر) في مسوحة الديفية . . . يقبض بين أنامله على الصليب ! . . ويتمتم بصلوات وأدعية ! . . وقد تجلت عليه دلائل لم يرها (كليموف) من قبل . . فشردت عن وجهه تلك الابتسامات والضحكات التي طالما طالعته مترسمة عليه . . وتبدت عليه سيماء الرزانة والرصانة ! . . وأخذ يرسم على كليموف علامة الصليب ! .

وفي الليل . . كانت تتسلل حوله أشباح وظلال تغدو وتروح في إبهام وغموض . . . وكانت أخته راكعة إلى جواره! . . تردد صلاة خفيفة في صمت وخشوع . ! . وترفع طرفها ـ في هيبة ورغبة ـ إلى السماء حيناً تطلب الرحمة من الله . . وإلى صورة (القديسين) أحياناً تسائلهم العطف والشفاعة . .

ما أن تنسم (كليموف) البخور والأرج ـ وهو يتضوع في جو الغرفة ـ حتى صاح ـ وقد استفزه ما استقر في بطنه (احملوا هذا البخور اللعين بعيداً! .) .

بيد أنه لم يكن ثمت من يجيبه . . وكان يترامى إلى سمعه من بعيد صوت الكهنة، وهم يرتلون أناشيد (الوداع) . . وصدى خطوات تهول على درجات السلم بين صعود وهبوط! .

حينما خفت وطأة الحمى عن كليموف. وانثنى عنه هذيانه!. كانت غرفته عاطلة من البشر. . وراحت أشعة الشمس تفيض من خلال النوافذ، وتسيل من بين السدول والأستار!. وراح يتراقص على مياه الإبريق البلوري شعاع مرتعش من النور دقيق براق كلاسيف المسلول. . . وطرق سمع (كليموف) صليل العجلات وصرير العربات وهي تدرج في الطريق، فأدرك أنه خلو من الثلوج. .

فراح يمد طرفه إلى ذلك الشعاع. . ثم يقلبه بين أثاث الغرفة ومتاعها. . . ونوافذها وبابها. ولم يلبث أن راودت نفسه رغبة ملحة في الضحك. !!. فأخذ صدره يهتز وخصره يرتج من الضحك العذب البهيج الذي راح يحتاج جسده من هامة رأسه حتى أخمص قدمه.

وهو لا يدري لذلك سبباً سوى الشعور البالغ من السعادة والارتياح، والإحساس السابغ من البهجة والمراح. .

وتملك كليموف شوق فائق إلى الناس والحركة والحديث، غير أنه لم يقو على تحريك أي عضو من جسده لما يعتريه من وهن وضعف! كان منشرح الصدر طلق المحيا لتنفسه الهادئ طيب النفس طرب الفؤاد لضحكه وبشره! . ووجود ذلك الإبريق البلوري ذي الماء العذب الفرات. . وشعاع الشمس المرتعش، وأستار النافذة المزركشة المزينة بشتى الألوان. .

ولاح له فيما بين جدران غرفته كون فاتن رائع. . أبدع الخالق صنعه! وحينما ولف الطبيب إلى غرفته ملك الصبيحة تمثل في ذهنه ما هو عليه من علم وبراعة في التشخيص، ودمائه

ورقة في المعاملة وحسن وظرف في المعاشرة . .
ما أجمل الناس جميعاً ! . ما ألطفهم ! !

قال الطبيب (رائع ! . رائع . . لقد تماثلت يا) صغيري (للشفاء . . وكدت أن تبرأ وتعاودك عافيتك ! . .) .

فأصغى الضابط الشاب إلى فيهقته في النطق . . وهو يضحك جزلا . . ثم هاجته ذكرى ذلك (الفنلندي) . . والسيدة ذات الثنايا اللؤلؤية . . والقطار . . فانقلب ضحكه إلى قهقهة . .

ثم لم يلبث أن طلب بعض الطعام والسجائر . . وقال في إلحاف (أيها الطبيب ! . دعهم يحضرون لي خبزاً وسرديناً وملحاً . .) فأبى الطبيب عليه ذلك ! . وصدع (بافل) بأمره . . ولم يسع في طلب الخبز لسيده . . فطفق (كليموف) يصرخ ويصيح كالطفل

حينما لا يجاب إلى بغيته . . فقال له الطبيب وهو يضحك مداعباً : (اسكت . . أيها الوليد الصغير . .) فلم يسع كليموف سوى أن يشاركه ضحكه! ولما غادره الطبيب أغرق في وسن هادئ عميق . . . أفاق منه بعد حين ومازال هذا الإحساس المفعم بالمرح، الفياض بالسعادة . يتملكه ويتسلط عليه نفسه . . وقد جلست خالته بجانب فراشه . . . فابتدرها قائلا في بهجة وبشر : (أه . . . يا خالتي! . ما الذي كنت أعانيه؟! . .)

ـ (تيفوس! . . .)

ـ (أحسبه كذلك! بيد أني الآن في تمام الصحة أين كاتي؟)

ـ (ليس بالدار! . . . لعلها ذهبت لزيارة إحدى لداتها بعد فراغها من الامتحان! .)

ومالت المرأة العجوزة ـ وهي تقول ذلك ـ نحو جوربها كأنها تبغي إصلاحه بيد أن شفتيها أخذتا ترتعدان! . فأشاحت بوجهها بعيداً . . وبغتة راحت تجهش بالبكاء وتنشج بالنحيب .

لقد نسيت في غمرة حزنها وحسرتها ما أمرها به الطبيب ففتأت تصيح : (آه . . . كاتي! كاتي! . . . لقد ذهب عنا ملاكنا . . . لقد رحلت! .) وأطرقت برأسها إلى الأرض، وهي تتأوه من البث والأسى . . . فحملق كليموف في شعرها الرمادي . . لا يحير فهما لما تقول، فسألها وقد تولاه الانزعاج . . . لكاتي . . . (ولكن أين ذهبت يا خالتي؟؟!! .) .

فأجابته العجوز بين دموعها التي راحت تنهمر على وجنتيها، وتكاد أن تخنق صوتها : (لقد أصيبت منك بالتيفوس! . . وماتت!

ووارياها التراب في اليوم السابق على البارحة!).

على الرغم من فجاءة وهول ذلك النبأ المفزع المروع... فما استطاع (كليموف) أن يقمع تلك الغريزة الحيوانية، التي جنحت بالضابط الناقه إلى الضحك والمرح! فراح يصيح ويقهقه ويشتكي الجوع... حتى إذا انقضت سبعة أيام... اعتمد كليموف على ساعد (بافل) وخطى وئيداً حتى دنى من النافذة... حيث قام ثمت يسرح الطرف في مساري الربيع الطلق الضاحك وهو ينفث في الأرض الحياة والخضرة! وقد علت شمس الضحى في السماء تكالمها الغيوم والسحب. وطرق سمعه صليل العربات فخيل إليه أنه فظيع حاد!

حينئذ صدع قلبه الأسى وأمضه الكمد . . وأحس بوقع الفجيعة عليه أليما عنيفاً . . . فطفق ينتحب في وله ومرارة ويغمغم شارد اللب كاسف البال . . . وقد دفن رأسه بين راحتيه . . . (كم أنا شقي! . . . يا ربي . . كم أنا شقي! . . .) .

وودع بهجته ومرحه . . . وانثنى يضطرب فيما كان يكتنفه من سآمته للحياة وضجره بالعيش . وقد ضاعفتهما فداحة تلك الخسارة التي لا تعوض! . . .

obeikandl.com

طبيعة مبهمة!

مالت السيدة الوضيئة جانباً، وهي جالسة على مقعد وثير مغطى بالمخمل الأحمر في عربة فاخرة من عربات السكة الحديدية! . وقد ضمت أناملها البضة الرقيقة مروحة مريشة أنيقة الصنع رائعة الوشي . . . راحت تهتز وتتراقص عن يمين تارة وعن شمال! . .

وطفق المنظار المعلق على أنفها الدقيق الفاتن لا يقر له قرار، بينما بدت (الحلية الماسية) مشرقة تتألق على جيدها كزورق يسبح في ماء المحيط! . .

وجلس في مقعد قبالتها الناموس الإقليمي للجمعيات الخاصة وهو شاب حديث المنبت في الأدب، يخرج على القوم بين حين وحين

بقصص طوال ـ من النسق الرفيع كما يحلو له أن يسميها ـ ينشرها في جريدة الإقليم . .

راح يحملق في صفحة وجهها ، ويحدق عن قصد لا يحول . . بعين العارف الخبير ! إنه يتأمل ويدرس . . ويتصيد ظلالا عابرة وأطيافاً حائرة بين ثنايا هذه الطبيعة المبهمة ، والغموض يكتنفها ! ، إنه يحاول أن يفهمها ويسبر غورها . . . فروحها ونفسها . . . كلتاهما مبسوطة بينه الجلاء أمام ناظريه . . .

ثم لم يلبث أن قال لها ، وهو يلثم رسغها البض على مقربة من السوار ! .

(أه . . . لقد أدركت ! . أدركت إلى أبعد مدى ما يدور بين جوانحك . . إن روحك ذات الحس المرهف والأمل الطامح . . تسعى في سبيل الخلاص من ربقة الحيرة الطاغية ، والفكاك من أسر القاتل ! إنه لصراع عنيف

(نضال مخيف! ولكن تمالكي روعك وأمسكي عليك صوابك وتذرعي بالصبر فلسوف يأتيك الفوز من حيث لا تعلمين. . . أجل!)

فقالت السيدة الأنيقة في صوت خفيض مضطرب النبرات، وقد علت وجهها بسمة حزينة: (أكتب عني يا (فلدمار). . .

إن حياتي عامرة مختلفة ألوانها!. زاخرة بالمال والذهب. . بيد أني ـ على الرغم من ذاك ـ لا أذوق للسعادة طعماً، ولا أجد الهناءة إلا حلماً!. ما أنا إلا نفسي معذبة وروح شقية في صفحة من صفحات (دستوفسكي)!.

(عرف العالم بهذه النفس يا (فلدمار)، وأذع خبر هذه الروح ذات الحظ العاثر والطالع النحس!. لقد أوشكت أن تبلغ من قلبي مبلغاً عظيماً. ولعلك لا تجدني بعد ساعة في هذا

القطـــار) ـ خبرنـــي! . ناشـــدتك الله . . . خبريني! .)

ـ (أعرنـي مسـمعيك . . . لقـد كـان أبـي كاتباً في (الخدمة) قتر عليـه رزقـه . . وكـان ذا قلب تعمره الطيبـة ويفـيض عطفـاً وحنـواً وذا عقل ليس بالعاطل من الفطنة والمعرفـة . . بيـد أن الزمام أفلت من بناته وهـو في غايـة العمـر، وتنكب جادة الرشد وهو على شـفا القـبر! . . فأدمن الخمر وأغرق في الميسر . . وامتدت يـده إلى الرشوة فلوثها دنسها! . وأني لا أضـمر لـه لوماً . . بل طالما رثيت له وأشفقت عليه! .

وأمـي! ـ ولكـن مـا الـذي يـدعوني إلى أن أمضي في هذا! . المتربـة والعـوز . . والنضـال المرير في سبيل لقمة تسد الرمـق! . . والمشـاعر التي تكتنف المرء لإحساسه بتفاهة شأنه وحقارة أمره في موكب الحياة الصاخب! أوه! دعني . .

لا تدفعني إلى أن أبعث هـذه الـذكريات وأثـير تلك الشجون. . . لقـد جاهـدت في أن أشـق سبيلي وأنت أدرى بحال التعليم في تلك المعاهد التي تأوي من يطلب العلـم فيهـا، ومـا يجتـاح الشباب ـ وهو يتفتح ـ من حماقات ونـوات. . ثـم هـذه الخفقـات الأولى بـين الضـلوع. . . للحب الوليد! إن ذلك لرهيب مهيب!. الحيرة والاضطراب، وتلك الآلام المبرحة التي تحـز في نفسي حزاً عند من يفقد يقينه بالحياة!. . .

أوه إنك مؤلف!. وتدرك ما يفعـم قلوبنـا. معشر النساء! لسوف تفهـم كـل شـئ!. كـم كنـت تعسـة شـقية!: أتلمـس السـعادة وأي سـعادة! وأتـوق إلى أن أطلـق لروحـي عنـان الحرية! أجـل فهـا هنـا. . . تكمـن سـعادتي وتستكن راحتي!.)

فغمغم (المؤلف) . . وهو ينهال على رسغها العاجي فيلثمه مرة أخرى عند السوار! . (يا لك من مخلوق رائع! إني لا أقبلك أنت . . . بل أحي فيك الإنسانة المعذبة . ألا تذكرين (رسكولنكوف) وبقبلته الخالدة! . .)

ـ (أوه . . . يا فلدمار . . إني لتواقة إلى المجد، مشوقة إلى الرفعة ظامئة إلى الشهرة! إني لأحن إلى أمر غير هذه الأمور التي لا تفتأ تدور على وتيرة واحدة . . . أمر غريب عجيب لا تألفه النساء! .

وبعد هذا! . ألفت إلى المقادير قائداً عجوزاً عظيم الثراء وافر النعمة! . هلا فهمتني يا فلدمار . لقد كانت تضحية بالنفس وأي تضحية! . وإنكاراً للذات وأي إنكار! ينبغي أن تعلم هذا!

لم يكن بوسعي أمر غيره فقد علقت (الأسرة) آمالها وعقدت أمانيها على أن أقبله. كم عانيت منه فلشد ما أثار سخطي وأهاج بغضي فقد كان عناقه شيئاً كريهاً وحديثه تافه النفس.

وكنت ـ على الرغم مني ـ أظهر له اللطف وأتكلف الرقة؛ إنها لحظات مريعة. بيد أن الرجاء كان يراود نفسي والأمل يداعبها فأمنيها اليوم الذي يوارى الرجل فيه التراب ويضمه اللحد حينئذ سوف يخلو سبيلي، فأحيا كما يروق لي وأهب نفسي إلى الإنسان الذي أعبده سعيدة راضية لا مجال للريب في أنه ثمة إنسان يقع من النفس موقع الشغف يا فلدمار).

وراحت السيدة الوضيئة تحرك مروحتها في شئ من العنف وبدا وجهها وكأنما اتخذت سماته الأهبة للبكاء، ومضت في حديثها

مستأنفة (وأخيراً خمدت أنفاس الرجل وذاق منيته فحلق لي نصيباً ليس باليسير. لقد صرت طليقة كالطائر الذي يحوم في جو السماء فيقع على ما يهوى إنها الساعة التي حانت فيها سعادتي أليس كذلك يا فلدمار؟ لقد أقبلت السعادة تطرق نافذتي ولم يكن علي إلا أدعها تدخل.

ولكن أسمع يا فلدمار ففي هذه اللحظة التي كنت فيها أسعى لرجل الذي أهيم به حباً لأهبه نفسي وأصبح شريكة حياته، وساعد عون له وناصره لشوكته فأسعد به وأستريح إليه.

في هذه اللحظة تبددت الأوهام وطارت الأحلام شعاعاً. وإن حياتنا حقيرة تمجها النفس، تافهة لا معنى لها. إني بائسة أشد البؤس، يائسة أبلغ اليأس. . . !

لقد كانت ثمة عقبة أخرى في سبيلي فلما أنثنيت أتلمس السعادة إذا بها نائية عني بعيدة كل البعد . . . أوه! ما اشد هذا ألما وتبريحاً لو أنك تحس هذا الألم وتستشعر ذاك العذاب) .

ـ (ولكن ما الذي قام في سبيلك ونهض في وجهك هذه المرة؟! بالله خبريني ما هو؟!) .

ـ (قائد عجوز آخر واسع الثراء ف : اني مثل الذي فر من الموت، وفي الموت وقع) .

وأنسدلت المروحة (المحطة) على الوجه الوضيء، وأعتمد (المؤلف) رأسه الضخم على راحة يده وأغرق في لجة من الفكر وقد لاح في هيئة الفيلسوف الحكيم .

وانطلقت القاطرة تدوي بصفيرها وصليلها بينما اصطبغت سجف النافذة بالحمرة المـوردة وقد أشاعتها الشمس الغاربة! .